القصة القصيرة الجزائرية بين القاعدة والخرق – نماذج مختارة-

بوعلي وليد
جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2

تمهيد

يبقى التراث الفكري والثقافي لأية أمة يمثل ذاكرتها وهويتها الحضارية، وهو بمثابة مرجع لتاريخها الأدبي بتركيبته ومميزاته، فكان الخارطة الموجهة والدقيقة في حياة المجتمعات وطبيعة خيالهم الإبداعية، كما يغوص في عمقه المؤرخون والدارسون لإثبات قضاياهم.

لذا تعد القصة القصيرة من بين الأجناس الأدبية التي استطاعت أن تخترق مخيال المجتمع وقواه الباطنية، بما فيها القصة القصيرة الجزائرية التي تعتبر جزء لا يتجزأ من القصة العربية، والتي شهدت العديد من المراحل وقطعت الكثير من الأشواط لتصل إلى مرحلة النضج والاكتمال ثم إلى ماهي عليه اليوم من حيث البناء التركيبي المنفرد وموضوعاتها المميزة؛ بمحاكاتها لواقع المجتمع وتقويمه ومعالجة هموم الناس.

لذا سنحاول في هذه الورقة البحثية رصد ملامح الكتابة القصصية في الجزائر بين التشكلات الأولى والآنية.

1. نشأة القصة القصيرة الجزائرية:

القصة القصيرة هي واحدة من الأجناس الأدبية التي ظهرت في وقت متأخر مقارنة بالقصة في العالم العربي، وذلك نتيجة الظروف الخاصة التي ميزت الثقافة العربية في الجزائر، والتي استُبعدت عنها دول عربية أخرى، وفي الوقت الذي ظهر " كُتاب أرسو دعائم القصة مثل: محمود تيمور، وطه حسين، والمازني، ومحمد طه حسين لاشين ...وغيرهم"1 ، كانت الجزائر في رحلة بحث عن طريقها وهويتها الخاصة، أين كان الاستعمار يسعى لطمسها والقضاء عليها، فهو الوضع الذي سبب تأخرا في ظهور الأدب ومنه القصة، لينتج من خلاله ازدواجية في اللغة والأدب.

ظهر في الجزائر تيار عربي وتيار غربي "التيار الغربي الذي اتخذ اللغة الفرنسية أداة للتعريف وللتعبير، فقد نشأ متأخّرًا مع أنّه كان من المفروض أن تنشأ القصّة الجزائريّة بالفرنسيّة مبكّرة بالنّسبة إلى القصّة الجزائريّة بالعربيّة لأنّ اللّغة الفرنسيّة كانت هي اللغة السّائدة في الجزائر منذ توغّل الاحتلال وسيطرت اللّغة الفرنسيّة على التّعليم والثّقافة، أمّا التيّار العربي فقد ولد متأثرًا بالثّقافة العربيّة واتّخذ اللّغة العربيّة أداة للتّعبير وظهر بظهور الحركة الإصلاحيّة"2، وارتبطت الحياة الأدبية بهذه الحركة فساهمت في ظهور القصة المكتوبة بالعربية على أيادي إصلاحية في صورة: "محمد بن عابد الجيلالي، أحمد بن عاشور، أحمد رضا حوحو، محمد سعيد الزّاهري ثم أبو القاسم سعد الله"3.

لقد اصطلح على القصة القصيرة الجزائرية اسم القصة الإصلاحية؛ حيث عالجت القيم التي يجب أن تطبع المجتمع مع حتمية تخلصه من النظام الاستعماري وتعزيز الحرية.

على الرغم من نشر قصص في المجلات والصحف ووجود موضوعات للاستفادة منها، إلا أنه لم يتمكن المؤرخون من تحديد التاريخ الدقيق للقصة الجزائرية القصيرة.

إذ يرى "عبد المالك مرتاض" أن قصة "فرنسوا والرشيد" لكاتبها "محمد السعيد الزاهري" هي ميلاد العمل القصصي الجزائري، ويعتبرها "أول محاولة قصصية عرفها النثر الحديث في الجزائر، تلك القصة المثيرة التي نشرت في جريدة الجزائر في عددها الثاني"4 عام 1925م.

في حين اعتبرت الناقدة " عايدة أديب بامية" أن أول عمل قصصي يعود إلى الكاتب "علي بكر السلامي" من خلال منشوره " دمعة على البؤساء" اتي نشرها في جريدة الشهاب شهر أكتوبر1926م.

وبالمقابل نجد "لعبد الله الركيبي" رأي آخر، إذ يرجع ظهور القصة إلى أواخر العقد الثالث من هذا القرن مؤكدا ذلك بقوله "فوجدت أن بدايتها الأولى ترجع إلى أواخر العقد الثالث حيث ظهرت في شكل المقال القصصي الذي هو مزيج من المقامة والرواية والمقالة الأدبية"5.

بعد هذا التقديم التاريخي المختلف حول ميلاد القصة الجزائرية، يُجمع أغلب النقاد على أن انطلاقة الكتابة القصصية في الجزائر كانت مع قصة "فرنسوا والرشيد" "لمحمد السعيد الزاهري"، التي شكلت اللبنة والمصدر الأول للكتاب وهي بمثابة مرجع لهم للاتكاء عليها في كتاباتهم المستقبلية، وكل أعماله القصصية تشكلت من موضوع الإصلاح الديني وقضاياه، كما يعد أول قاص جزائري تطبع له مجموعة قصصية تحت عنوان "الإسلام في حاجة على دعاية وتبشير" وذلك عام 1928م، حيث استطاع بفضل كتاباته النوعية، أن يمنح هذا الجنس الأدبي نضجا فنيا ويرتقي بلغته.

2. التفاعل الأجناسي في قصة –طلب زواج- لمحمد مفلاح.

1.2 التفاعل مع فن الرسالة

إن احتياج القصة القصيرة إلى الأسلوب المباشر جعل منها تستدعي حضور فن الرسالة؛ التي تمتاز لغتها بالوضوح والسهولة، وهذا ما تجلى لنا في عتبة عنوان قصة "طلب زواج"، هذه الرسالة التي بعث بها المحاسب "الصادق" إلى محبوبته الغير معروفة "فاطمة"، كما ذهب الكاتب إلى تكثيف أحداث هذه القصة وتقديمها في رسالتين الأولى اتسمت بالطول نسبيا، أما الثانية فكانت باقتضاب وبلغة مضغوطة.

الصادق المحاسب صاحب الخمسين عاما والذي لا يزال يعيش العزوبية، ها هو يبعث برسالة إلى "فاطمة" صاحبة الستة والثلاثين عاما، يطلب فيها يدها للزواج ومع ذلك أقحم البعض من حياته الاجتماعية وبعض الحقائق عن واقعه:

" فاطمة أيتها المحترمة.

هذا الصباح خرجت من البيت حانقا على نفسي وعلى الدنيا المتكبرة والناس العابثين فيها ... يا أيتها الآنسة الكريمة ... أنا فنان وولدت شغوفا بالموسيقى والتسكع في الأزقة المظلمة. آه العفو... في رسالتي القادمة سأروي لك كل تفاصيل حياتي"[6]؛

هي تفاصيل صغيرة عن حياة "الصادق" والتي قد تكون غير كافية لكسب ثقة العروس والظفر بقلبها، فهذا ما تجسد حدثا في رد "فاطمة":

"أيها السيد المحاسب المحترم ...

وصلتني رسالتك الطويلة. اسمي فطومة. أبلغ 19 سنة وليس 39 سنة. اهتم بقصتك البوليسية أما أنا فقد تزوجت فلا تحاول أن تكتب لي مرة ثانية. زوجي التاجر طبعه عنيف. لا تفشل ستلتقي المرأة التي تناسبك"[7].

يبدو أن الرجل أخطأ العنوان وظل طريق معشوقته بين سطور رسالته، وبذلك تبخرت أحلامه قبل أن تبدأ، إن هذا التعالق بين القصة والرسالة منح كلتا الشخصيتين مساحة ملائمة لاحتواء مشاعرهم، والتعبير عنها بلغة بسيطة قريبة من الواقع الاجتماعي، وفي قالب يواكب ما يقتضيه العصر كطلب الزواج في الجرائد والمجلات وعبر فضاء الأنترنت المخصص لذلك.

في الأخير نقول إن الكاتب تمكن من إعلاء صورة الرسالة داخل هذه القصة لتأخذ مكانا مركزيا ساعد المتلقي على فهم مضمونها.

3. تمثلات التجريب في قصة -رحلة البنات إلى النار- لعز الدين جلاوجي.

1.3 تعالق الأنواع

إن تداخل الأنواع الأدبية هو سمة من سمات الكتابة في هذا العصر، حيث تختلف الأنواع الأدبية عن ذي قبل، إذ تمتاز بالتقارب فيما بينها: كالقصيدة والرواية والمقامة وغيرها.

ومكنت خاصية الانفتاح على الأنواع الأدبية القصة القصيرة من احتوائها لكل هذه الأجناس مشكلة لنا؛ القصة القصيدة والقصة المقالة والقصة الرواية والقصة المسرحية والقصة المقامة... ونتيجة لذلك، يلجأ كثير من الكتاب إلى نظام المزاوجة بين نوعين أدبيين، لغرض التجريب وإظهار براعتهم الإبداعية، فيقوم المؤلف بإدخال قلمه في كل كتابة أدبية؛ حيث تعتبر القصة القصيرة من بين الأنواع الأدبية التي تقبل جميع الأجناس الأخرى عند الانفتاح عليهم وجمعهم معًا، لذا وجدنا تداخلًا كبيرًا بين القصة وفنون الأدب الأخرى.

إذن فالمقصود بالتداخل الأجناسي هو ذلك التجاوز للمألوف والهدم للجدار الفاصل بين الشعر والقصة والرواية والمقامة، وباقي الأجناس الأدبية، وبالمقابل ذلك التجاوز والهدم هو تطبيق للتجريب وما تلك المزاوجة الأجناسية إلا دليل على التعددية في الكتابة والذي يحقق جمال التجربة، ويخلق لنا أدبا جديدا وكاتبا موهوبا يخرق المألوف.

1.3 القصة القصيدة:

الدراس لقصص "عز الدين جلاوجي" يلاحظ ميله لكتابة القصص القصيرة. متخطيا فيها الكتابة الكلاسيكية من خلال توظيفه لتقنيات وآليات حديثة، فهو من المؤلفين الذين لا يحبون أن يكونوا محصورين؛ كما يعد من المغامرين في تجربتهم الإبداعية، فهذا ما نلمسه في قصة "الأمير شهريار" التي تعالق فيها روح الشعر بالقصة، حيث يقول[8]:

يا سيدي....

يا أغرودة في حناجر الطيور..!

يا شذى من تويجات الزهور..!

يا سيفا في وجه الشرور..!

يا أعدل العمرين..!

و أشجع العنترين..!

أزف إلى قلبك المكلوم..

خبر يزيل عنك الكرب

و الغم و الهموم..

لك شهريار كرشه الكبير..

بإصبعه الصغير..

وقال بصوته المبحوح..

ما خلفك .. يا كلبي الأمين؟

يصف "جلاوجي" في هذا المقطع الحواري ما جرى؛ حيث أثنى القائد على صفات الأمير شهريار كالشجاعة والوسامة، قصد إعلام الأمير بأمر زواجه؛ ليقدم لنا الكاتب هذا الوصف بتقنية الحوار في قالب شعري قصصي، محققا بذلك مغامرة حديثة أكسبت نصه بعدا جماليا.

إن استخدام القاص لتقنية الحوار والوصف، جعل من القصة مليئة بالعديد من الأساليب كأسلوب النداء الخبر الذي رسمه على شكل قصيدة، مركزا على المعاني التي تحمل عمقا دلاليا، موظفا في الوقت ذاته الأسلوب الساخر حين قال: ما خلفك.. يا كلبي الأمين؟

2.3 القصة المقالة:

كما نعلم جميعاً، المقالة هي ابنة الصحافة، نشأت فيها، وازدهرت معها، وهي فن أدبي؛ أي قطعة نثرية تتعامل مع الموضوع من الخارج بآلية بسيطة لإعلامنا برؤية الكاتب، حيث نجدها تتعالق مع القصة القصيرة من خلال القِصر، فكلاهما يكتبان حدثًا أو يعبران عنه في بضعة أسطر.

وبينما نتفقد مدونة "جلاوجي" "رحلة البنات إلى النار" ونتصفح قصصه نواجه هذا النوع الأدبي (المقالة) في مجموعته القصصية ، لذلك يجب أن نستحضر قصة "كهانة المتنبي" لإثبات صحة ادعائنا، إذ نجد في بديتها: "**أعلن هذا الصباح عن موت فتاة في الثامنة عشر من عمرها: قيل أنها فتاة قتلت نفسها ... هكذا قالوا ... وقد وضعت كلمة قتلت بين ظرفين حتى لا تتسرب عدواها إليك وإلى غيرك ممن يقرأها... واتفقوا جميعا على أنها في ريعان الشباب، وأنها في ربيع العمر**"[9].

يخبرنا القاص من خلال هذا المقطع القصير خبر وفاة الفتاة، بأسلوب يوحي بمعالم المقالة، ثم انتقل بنا في المقطع الموالي للقصة ليؤكد لنا في كتابته حضور هذا النوع الأدبي-المقالة-، من خلال تناوله قضية الإرهاب في الشيشان والبوسنة، فيقول: "**وقد ركزت القنوات الأجنبية هذه الأيام على الحرب الضروس التي تدور رحاها في الشيشان والبوسنة متهمة في الوقت نفسه جوهر دودابيف بأنه زارع للإرهاب الدولي**"[10]

2.3 القصة المقامة:

المقامة هي أحد الفنون الأدبية العربية التي تنسب في نشأتها إلى بديع الزمان الهمذاني، والمقامة في اللغة هي المجلس قبل أن تتطور لتكتسب دلالتها الاصطلاحية بعدما أصبحت الكلام الذي يقدم أمام الجمهور بغرض إرشادي توجيهي أو لإكسابهم ثقافة في الحياة.

إن أصل المقامة قصة قصيرة، إذ يطلق عليها قصة العصر بجميع تقنياتها وفنونها، ومن هنا تظهر براعة بديع الزمان الهمذاني في تشكيل الشخصيات والأحداث المحببة للمتلقي في قالب ساخر ومضحك.

لقد ذهب "عز الدين جلاوجي" إلى استحضار المقامة لغرض إلباسها حلة القصة، والتي منها قصة 'كهانة المتنبي" التي دفعته الضرورة الأدبية إلى التناص مع إحدى مقامات بديع الهمذاني، إذ يقول: "**أما الناس فكانوا يهرعون كحمر مستنفرة فرت من قسورة يتوجهون إلى خيمة نصبت هناك، ترتفع فيها رائحة الشواء، ويقف على بابها البديع الهمذاني يصيح في الناس":**

" السوق أقرب .. وطعامه أطيب .. شواؤنا يتقاطر عرقا .. وتتسايل جذاباته مرقا.. حلواؤنا ليلية العمر ..يومية النشر .. تذوب كالصمغ ..قبل المضغ"[11]

نلاحظ من خلال هذا المقطع المسرود أن "جلاوجي" كان واعيا بمقامات الهمذاني واستطاع أن ينقلها إلى نصه بطريقة إبداعية.

خلاصــة

تمتاز الأجناس الأدبية بقابلية التغير من زمن لآخر، نظرا للعلاقة المتغيرة بين الأنظمة المكونة للجنس أو النوع ولذلك لا يمكننا إنشاء جدول أجناسي ثابت، لأي نوع من الأنواع الأدبية.

استناداً إلى ما سبق، يمكن القول أن تحول الكتابة في القصة القصيرة الجزائرية بدى واضحا من خلال استغنائها عن القاعدة الأولى في الكتابة وقبولها لفعل الخرق، أين أخذت تمثلات عدة أعطت بعدا جماليا وفنيا قيما للأعمال القصصية، كما كسرت أفق المتلقي و دفعت به إلى المشاركة في تحليل أبعادها وإسقاطاتها على الواقع.

الهوامش والإحالات:

[1] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 11.

[2] المرجع نفسه، ص13-14.

[3] عبد المالك مرتاض القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 07.

[4] عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص 162-163.

[5] عبد الله الركيبي، مرجع سابق، ص 11.

[6] محمد مفلاح، أسرار المدينة، قصص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص 57.

[7] المصدر نفسه، ص 64.

[8] يوسف وغليسي، الشعريات والسرديات، دار أقطاب الفكر، الجزائر 2006، ص 128-134.

[9] عز الدين جلاوجي، قصة "رحلة البنات إلى النار"، ص 101.

[10] عز الدين جلاوجي، المصدر نفسه، ص 101.

[11] المصدر نفسه، ص 101.

قائمة المصادروالمراجع:

عبد الله الركيبي، ***القصة الجزائرية القصيرة***، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.

عبد المالك مرتاض ***القصة الجزائرية المعاصرة***، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

عبد المالك مرتاض، ***فنون النثرالأدبي في الجزائر***، 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983.

عز الدين جلاوجي، قصة "رحلة البنات إلى النار".

محمد مفلاح، ***أسرارالمدينة***، قصص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.

يوسف وغليسي، ***الشعريات والسرديات***، دار أقطاب الفكر، الجزائر 2006.